معركة الآزور

للشاعر الانجليزي ألفريد تنيسون

بقلم الأستاذ محمد عزت عرفة

(بقية ما نشر في العدد الماضي من ترجمة القصيدة)

وفيما كانت « سان فيليب » تشرف علينا من موضعها هذا إشراف السحابة التي توشك أن تنقض بصواعقها في توار وعنف، كانت أربعة من الغلايين[1] الإسبانية قد انحازت عن الأسطول جانباً، فاستقر اثنان منها على يسار سفينتنا واثنان منها على يمينها، ثم انثالت قذائف الدمار علينا منها جميعاً. ولكن سرعان ما تبينت سان فيليب حرج موقفها فارتدت مبهورة، وفي جوفها ما يقض ويرمض ... ثم انحدرت إلى سفينتنا عُصب من سائر السفن تقاتلنا يداً بيد. اثنتي عشرة مرة يقتحمون صفوفنا برماحهم وقذافاتهم، واثنتي عشر مرة تنفضهم عنا كما ينفض الكلب الوائب من الماء أذنيه البليلتين[2]

... أخيراً بقل وجه النهار وتوارت الشمس بالحجاب، ثم طلعت نجوم الليل فوق صفحة المحيط الدافئ؛ ولكن المعركة القائمة بين سفينة واحدة وثلاث وخمسين لم تكف لحظة ... فقد كانت (غلايينهم) السامقة تنساب إلينا سفيناً بعد سفين، على مدى فترة الليل الطويل، فتقذفنا بجاحم من متسعّر نارها ومتأجج حممها؛ ولكنها ما ترتد إلا وقد تخضبت بدم قتلاها وتجللت بسواد فضيحتها وعارها. لقد ابتلع اليم فريقاً منها، ومزقت قذائفنا فريقاً آخر لم يعد يملك معه للنضال سبيلاً[3]. فيا لها من موقعة عجب، لم تقع عين لها من قبل على شبيه!

كانت سفينتنا لا تزيد على حطام متناثر عند ما راح قائدنا يهتف في قوة: ناضلوا، ناضلوا! وما كادت تولي بُهْرة هذا الليل المتقاصر حتى أصيب بجراحة غادر من أجلها ظهر السفينة إلى حيث يضمّد له[1]... ولكن قذيفة أخرى مسددة شقت طريقها إلى طبيبه الذي يقوم عليه فخر في موضعه صريعاً، وأصيب هو بجراح أخرى في جنبه وفي شواه، فما كان إلا أن هتف مكرراً دعوته: ناضلوا، ناضلوا!

* * *

انحسر نقاب الظلام، وذر قرن الشمس على الأفق البعيد، ورأينا الأسطول الإسباني بدعائمه المنهارة قد أحصر بنا من كل وجهة، وطوقنا في دائرة تامة. ولكن سفينة واحدة لم تجرؤ على معاودة نزالنا، كأنما قد خشوا أن يكون في نكزنا فضل من حُمة[2] فانحازوا إلى ناحية منا يتوكّفون مغبة هذا النضال الرائع. ولم نكن قد قاتلناهم عبثاً، ولكن حالتنا كانت بالغة الخطورة، إذ أودى من رجالنا المائة أربعون في محتدم هذا الصراع اليائس؛ وأصيب شطر الباقين بما آفَهُم وأقعدهم عن التصرف مدى الحياة. أما مرضانا في قاع السفين فقد مُنوا من نفحات البرد بما يبئس أعضاءهم وشلّ قواهم ...

وهوت الرماح من أيدينا جميعاً بين متقصّد ومناد، ونفدت كل ذخيرتنا من القذائف والمتفجرات، وامتلأت جنبات السفينة بكل شراع مقدود وقلس مبتوت[3]؛ ولكن السير

---

(١) الغليون Galleon طراز أسباني من السفن الحربية الضخمة، وكان ربما استعمل في نقل كنوز المستعمرات من أميركا وجزر الهند الغربية

(٢) تلقت (الانتقام) هجوم خمس عشرة سفينة في مدى خمس عشرة ساعة من الثالثة عصراً حتى السادسة من صباح اليوم التالي.

(٣) غرقت سفينتان أسبانيتان، وجنحت أخريان إلى الشاطئ وخسر الأسبانيون ألفاً وخمسمائة من جنودهم وبحارتهم، وكانوا في جملتهم يزيدون على عشرة آلاف رجل

(١) البهرة ساعة من الليل بعيد منتصفه؛ ويبدو أن تنيسون هنا يتابع أصدق الروايات عن وقت إصابة السير رتشارد، وهي رواية السير والتر رالى التي يدعمها بشهادة ستة من البحارة الذين نجوا واستجوبوا رسمياً في انجلترا. وإذن فمن الخطأ — كما يقول رالى — ما يزعمه بعضهم من أن السير ريتشارد أصيب في أول القتال، ثم بقي على ظهر السفينة حتى منتصف الليل رغم إصابته ...

(٢) الحمة: السم نفسه لا الشوكة اللاسعة كما هو متعارف، وقد نص على ذلك ابن قتيبة في باب (ما يضعه الناس في غير موضعه) من كتابه أدب الكاتب

(٣) أصيبت الانتقام بثمانمائة طلقة. كان منها ثلاثة تحت سطح الماء، فتدفق في قاعها إلى ارتفاع ستة أقدام

وتشارد راح يتحدث إلينا فى كبريائه الإنجليزية فقال :

أيها الرفاق ، لقد اضطلعنا طوال يوم وليلة بحرب لن يكون مثلها أبداً ، وربحنا من المجد وكرم الذكرى ما أناف بنا على اليفاع ؛ وسنودع الحياة فى يوم قريب أو بعيد ، على نجوة هذا الشاطئ أو فى أثباج هذا اليم ، فهل نبالى متى يكون ذلك أو كيف يكون ؟ ألا أغرق لنا السفينة يا سيدى المدفعى ! أغرقها !! إجعلها شطرين ... ولنقع بين يدى الله ولا نقع فى أيدى الإسبانيين !

وأجاب المدفعى الباسل : أجل ، أجل[1] ... ولكن البحارة اعترضوا قائلين : إن لدينا أطفالاً وخلفنا زوجات ، وها قد حفظ الله علينا حياتنا ، فلنستوثق من الإسبانيين بعهد على أن نحاجزهم فيخلوا سربنا ، لأن من الخير أن نعيش الآن حتى نعود إلى قتالهم فى مؤتنف الأيام ، فنكيل لهم الطعن خلاجاً والضرب هذاذيك ... وهكذا ألقوا السلم إلى أعدائهم بينما اضطجع القائد الباسل يودع حياته ويجود بآخر أنفاسه[2]

وحملته ثلة من الأسبان المتغطرفين إلى سفينة قائدهم[3] فأضجعوه إلى جانب الدقل ... وأقبل عليه القوم يزكون عمله بلهجتهم الأجنبية المتظرفة ، ويشيدون ببطولته على مرأى منه ومسمع ؛ فما كان إلا أن نهض بينهم وهو يصيح قائلاً : لقد حاربت فى سبيل ملكتى وبلادى كما يحارب الرجل الشجاع المحق ... لم أزد على أن أديت واجبى كاملاً كما ينبغى أن يؤديه رجل ... وها أنا ، سير رتشارد جرانفيل ، أموت وملء نفسى الغبطة والاطمئنان

ثم سقط فى موضعه يكيد بنفسه حتى صفرت منه الوطاب[4]

* * *

وحدقوا بأبصارهم فى وجه الصريع الذى تجسمت فيه الشجاعة وصدق البلاء ، الذى طامن من نخوة أسبانيا ، وطأطأ من إشرافها بما تحدى به أسطولها الضخم من فلك صغير وشرذمة من الرجال قلائل ... أشيطاناً كان هذا أم إنساناً ؟ ... لقد كان الشيطان بعينه من أية وجهة نظروا إليه . على أنهم احتفلوا بإيداع جثمانه اليم احتفالاً ملؤه التجلة والتكريم .

ثم احتلوا : « الانتقام » بشرذمة من بحارتهم ذوى السحن الغريبة والوجوه السمراء . واستأنفت السفينة رحلتها فى رفقة ضحاياها ، وهى تكابد غصص الآلام من مواجعها الخاصة غب المعركة الرهيبة

وما أسرع ما نهضت الرياح من غفوتها ، وهبت عليهم مجفلات من قبل الأرض التى اعتبدوا أهلها وعاثوا فى أرجائها مفسدين[1]

وبدأ اليم يرغى ويزبد والسماء تئن وتزمجر ، فما أسدل الليل ستوره إلا والقواصف العاتية تجتاح البحر من كل جهة ؛ والموج يتدفع حول السفن كأنما تحركه أيدى الزلازل ، ويتدفق على جوانبها وأشرعتها ، فلا ينحسر منها إلا عن دوقل مصدوع أو علم منزوع

ثم استجمع البحر قواه وعطف على الأسطول الذى أوهنت من تجلده القذائف فلفه فى أحضانه[2]

أما سفينتنا « الانتقام » فقد غاصت بدورها إلى جانب إحدى الرضام القوابع تحت الماء[3] ، مودعة حياتها إلى الأبد فى أعماق هذا الخضم الجياش .

(جرجا) محمود عزت عرفة

---

(١) كان يميل هذا المدفعى إلى رأي قائده من إغراق السفينة . وعندما تقرر أمر التسليم حاول الانتحار بسيفه فحيل بينه وبين ذلك واحتجز فى إحدى الغرف ، حتى كان ما كان من أمر النكبة التى حاقت بالغالب والمغلوب جميعاً

(٢) انطوت شروط التسليم على ضمان سلامة الباقين من الجند والبحارة وإعادتهم إلى وطنهم ، مع الاحتفاظ ببعض ذوى الرتب العالية منهم — دون سجن أو تضييق — إلى أن يتم تقديم الفدية المعقولة عنهم .

(٣) هو الجنرال ألفونسو دي باسون

(٤) توفى السير رتشارد بعد يومين أو ثلاثة من نقله ، ولا يعرف شيء على وجه التحقيق من مصير جثمانه ، وهل كان دفنه براً أو بحراً

(١) من الأساطير القديمة أن كل موقعة بحرية تتبع بعاصفة هوجاء كأنما تجيء لتعفى على آثارها

(٢) كان قد التحق بالأسطول بعد المعركة قافلة تجارية بلغ بها عدد السفن جميعاً مائة وأربعين . ولكن لم يصل من هذا العدد الضخم إلى أسبانيا غير اثنتين وثلاثين سفينة ، أما سائرها فقد تحطم أو فقد ، على مسافة غير بعيدة من الآزور

(٣) الرضام صخور عظام أمثال الجزر ، واحدتها رضمة (عن الشالي) ، وقد كان غرق الانتقام عند رضام جزيرة سانت ميشيل St. Michael إحدى جزائر الخالدات (الآزور)